القواعد القرآنية والنبوية

للاستاذ : محمد عزة دروزة

— ١ —

اعار القرآن هذا الأمر عناية عظيمة لما له من خطورة وأثر في أمن المسلمين ودولتهم ودعوتهم .

وهذه النصوص القرآنية في ذلك، وقد تكون كثيرة ، ولكنا راينا أن نوردها لأن تلك العناية تظهر بقراءتها متسلسلة اكثر :

١ — (لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا مافي صدوركم او تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل اطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) آل عمران /٢٨ — ٣٢ .

٢ — (يايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا

في تنظيم الصلات بين المسلمين وغيرهم

(تولي المسلمين لغير المسلمين)

إن الله بما يعملون محيط) آل عمران /١١٨ ــ ١٢٠ .

٣ ــ (بشر المنافقين بان لهم عذابا اليما . الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا . وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناسَ ولا يذكرون اللهَ إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يُضلل الله فلن تجد له سبيلا .

يايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) النساء/١٣٨ ــ ١٤٤ .

٤ ــ (يايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياءبعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح او أمْر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في انفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم إنهم لمعكم حبطت اعمالهم فاصبحوا خاسرين . يايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة

على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يايها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفارَ أولياءَ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بانهم قوم لا يعقلون)

المائدة/٥١ — ٥٨ .

٥ — (يايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وإخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بامره والله لا يهدي القوم الفاسقين).

التوبة/٢٣ و ٢٤ .

٦ — الم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون. أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شيء الا إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان الا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله اولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن انا ورسلي إن الله قوي عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه ويُدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا إن حزب الله هم المفلحون) المجادلة/ ١٤ — ٢٢ .

٧ — (يايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ان تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وانا أعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا إليكم أيديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) الممتحنة/١ — ٣ .

٨ — (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين

وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون) الممتحنة/٨ و ٩ ٩ ــ (**يايها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور**) الممتحنة/١٣ .

ــ ٢ ــ

وكلمات التولي والأولياء في الآيات هي ــ والله اعلم ــ في معاني التحالف والتناصر والتضامن في الحروب والمواقف الأخرى . والموادة قد تعني مبادلة المودة واتخاذ البطانة وافشاء الاسرار . وهو ما جاء تفسيره في الآية الأولى من سورة الممتحنة والآية الأخيرة من سورة الممتحنة .

ولقد جاء النهي والتحذير في بعض الآيات مطلقين وفي بعض الآيات مقيدين بمن حاد الله ورسوله وبمن هو عدو الله وعدو المسلمين وبالذين اتخذوا دين المسلمين ونداءهم الى الصلاة هزوا ولعبا .

والمتبادر ان يكون هذا القيد شاملا للآيات التي نجد التحذير والنهي فيها مطلقين . وقد يكون في آية سورة الممتحنة دليل على ذلك لأنها صريحة بأن الله لا ينهي المسلمين عن التعامل والتعايش والبر والاقساط للذين سالموهم ولم يقاتلوهم ولم يظاهروا عليهم .

ــ ٣ ــ

وجملة (**ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء**) في الآية (٢٨) من سورة آل عمران تعني تبرؤ الله تعالى ممن يتخذ الكافرين الاعداء اولياء بدلا من المؤمنين . وآية سورة المائدة (٥٤) تجعل توليهم ارتدادا عن الاسلام وهو تعبير آخر اكثر صراحة.

وآيات النساء تذكر ان تولي الكفار انما يقع من المنافقين الذين لا يَرْعَوُون عن تبديل مواقفهم بين المسلمين والكفار حسب الظروف ، ويكون من مقاصدهم ابتغاء العزة ، ولذلك كانوا موضع تنديد شديد قاصم وهذا المعنى ماثل في آيات سورة المائدة حيث كان مرضى القلوب ــ وهذا تعبير يرادف شيئا ما تعبير المنافقين ــ الذين لا يرعوون عن تولي اليهود والنصاري الاعداء يحتجون بالخوف من دوران الدوائر بحيث يصح القول أن القرآن يكاد يستبعد ان يتولى مؤمن صادق الايمان عدوا في اي حال . بل لقد جاء هذا نصا جازما في آية سورة المجادلة (٢٣) .

ــ ٤ ــ

والصور التي تنطوي في الآيات هي حقا من صور السيرة النبوية وظروفها في العهد المدني . وكتب السيرة تفيد انه كان بين قبائل العرب وبين بعض اهل الكتاب محالفات وموالاة قبل الاسلام وهذا ما يمكن ان تفيده بعض الآيات ايضا . فلما اخذ بعض اهل الكتاب يقفون من الاسلام ورسوله واهله موقف العداء والاذى اعتبر ذلك منهم نقضا واقتضت حكمة التنزيل النهي والتحذير ، وقد حاول المنافقون التمسك بالمحالفات والموالاة السابقة بحجة أن ذلك من واجب الوفاء بالعهد الذي يأمر به القرآن، بل ان آيات سور آل عمران (١١٧ ــ ١٢٠) والنساء (١٤٤) تفيد أن بعض المسلمين أرادوا التمسك به

كذلك بنفس الحجة . فاقتضت حكمة التنزيل بيان خطورة ذلك وموالاة النهي عنه وتقرير كون الذين يحالفونهم قد صاروا أعداء للاسلام والمسلمين.

— ٥ —

والراجح ان عهد ولاء وثائقي لم يكن بين ذوي القربى من المسلمين والكفار وأن القرآن قد نهى المؤمنين عن تولي أقاربهم الكفار الأعداء لنفس الاعتبار : لأنه قد يكون من المسلمين ما يظن أن ذلك أمر طبيعي وفق تقاليد العصبية الجاهلية. وهو حق لايتحمل مراء لأن عكسه كان من شأنه إلحاق أشد الضرر بالمسلمين الذين صاروا وحدة تجمعها مصلحة واحدة .

ويبدو ان هذا كان مما يحز في نفوس بعض المسلمين فنبههم الله على خطورته ومداه في آيات سورة الممتحنة ١ — ٣ القوية النافذة وضرب لهم مثلا في ما فعله ابراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه لأن ملته هي الملة التي صاروا عليها .

واهاب بهم ان يكون لهم بذلك الأسوة الحسنة في آيات سورة الممتحنة هذه: **(قد كانت لكم اسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما املك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك انبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم. لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولَ فإن الله هو الغني الحميد)**

(٤ — ٦) ثم اقتضت حكمة الله ان يهدىء روعهم فأملهم بتبديل الحال وانقلاب العداء الى مودة في الآية التي جاءت بعد هذه الآيات مباشرة وهي :(**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم**) وقد تحقق وعد الله بعد فتح مكة ودخول أهلها في الاسلام بعد وقت قصير من نزول الآيات فتمت المعجزة القرآنية . ثم بين لهم ان المطلوب منهم ليس مقاطعة جميع الكفار وانه لا بأس عليهم من حسن التواصل والتعايش والبر والإقساط لمن لم يقاتلهم ويخرجهم من ديارهم وانما المطلوب منهم عدم تولي من قاتلهم واخرجهم من ديارهم وظاهر على اخراجهم مما هو متصل بأمنهم وسلامتهم ومتسق مع طبائع الأمور في الآيتين اللتين جاءتا بعد هذه الآية مباشرة ايضا وهما:(**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون**) وبذلك استثنى فريق كبير من اقاربهم الذين لم يندمجوا في عداء وقتال ضدهم ..

— ٦ —

والصور في الآيات وان كانت من صور السيرة النبوية في العهد المدني كما قلنا فإن الخطاب في أكثرها عام مطلق فيكون في الآيات والحالة هذه صفة التشريع المستمر وهو تحريم تولي كافر عدو وتحريم التمسك بميثاق بينه وبين فريق من المسلمين حينما

يبدو من هذا العدو نكث وغدر وعداء ضد الاسلام والمسلمين . وهو ماعليه جمهور المفسرين .

ويلحظ في السور انها تناولت كل فئات الكفار الأعداء من يهود ونصارى ومشركين ومن أقارب وأباعد ماداموا أعداء لدين الله والمسلمين يمدون اليهم أيديهم والسنتهم بالأذى والسوء وتناولت كل أنواع التولي من التحالف والتناصر واتخاذ بطانة وافشاء الأسرار والموادة ومن التأثر باعتبارات القربى والجنس والقومية .واعتبرت كل ذلك مخالفا لأمر الله تعالى وتوجيهه وتحذيره وانذاره ،وارتدادا عن دين الله وبراءة منه .

وليس والحالة هذه من مسوغ للتفريق بين كافر وكافر أو بعبارة اخرى بين كتابي وغير كتابي من مشركين ووثنيين وملحدين . كما يحلو لبعضهم أن يفعل . فكل من لا يؤمن برسالة محمد وكتاب الله المنزل عليه فهو كافر . فاذا وقف موقف الأذى والعداء من الاسلام والمسلمين تناوله حكم التشريع القرآني .

— ٧ —

وآية سورة الممتحنة الثامنة احتوت تنبيها للمؤمنين بأن الله لا ينهاهم عن البر والاقساط لمن لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . وهذا يعني اباحة حسن المعاملة والتعايش معهم والبر بهم والاقساط لهم وحسب . على أنها ليس فيها فيما يتبادر لنا ما يمنع المسلمين من التحالف والتناصر والتواد مع غيرهم المسالمين لهم الكافين عنهم ايديهم والسنتهم والاستعانة بهم في شتى المجالات اذا ما تيقن أولو الامر المسلمون من حسن نواياهم وكانت ظروف المسلمين ومصلحتهم تقتضي ذلك .

وفي دوران النهي والتحذير على تولي الأعداء وحسب الذين يؤذون المسلمين والاسلام بمختلف الصور التي يتحقق بها العداء من قتال وفتنة وكيد وتآمر وتعاون مع الاعداء ونقض للعهد مما فصلناه في المقال الأول ما يجعل ذلك القول سائغا ، وهو متسق مع طبائع الأمور ، فالمسلمون قد لا يقدرون على أعدائهم وحدهم بالعدد والعدة .

وفي السيرة النبوية احداث قد يستأنس بها على صواب ذلك . فقد احتوى كتاب الموادعة الذي كتبه رسول الله حين قدم الى المدينة مهاجرا اقرارا لبقاء اليهود على محالفاتهم مع الأوس والخزرج ، يتعامل كل فريق مع حليفه ، ويفك عانيه ويحارب اليهود مع المؤمنين اعداء المؤمنين المحاربين وينفقون على شؤون هذه الحرب ، ويكون لليهود النصر والأسوة على المؤمنين غير مظلومين ولا متناصرا عليهم ، ويكون على المسلمين نفقتهم ، وعلى كل فريق النصر للآخر والنصح والنصيحة والبر دون الاثم . ويتناصرون على من دهم يثرب !

ولقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من الأوس والخزرج ملتزمين بذلك الى أن أخذ اليهود ينقضون العهد جماعة بعد جماعة فأدى ذلك الى انتقاض ما كان بينهم وبين النبي والمسلمين والى انقلاب حالة العهد والتحالف الى حالة حرب وعداء . ولقد حاول المنافقون بل وبعض المخلصين التحجج بذلك

فاقتضت حكمة التنزيل النهي والتحذير والانذار على ما مر شرحه .

ولقد دخل بنو خزاعة في صلح النبي والمسلمين حينما انعقد الصلح بين النبي والمسلمين وبين قريش في الحديبية فصار بنو خزاعة حلفاء للمسلمين ينصر كل منهم الآخر في الحرب ، وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم عدوان بني بكر حلفاء قريش بتحريض من بعض رجال قريش على بني خزاعة نقضا لصلح الحديبية . وكان بنو خزاعة في جيش النبي الزاحف على مكة . ولم تذكر الروايات أن بني خزاعة حينما دخلوا في صلح النبي يوم الحديبية كانوا مسلمين . وانما كان بينهم وبين بني بكر عداء، فخير الفريقان بالانضمام الى اي فريق، من قريش، والمسلمين فاختار بنو خزاعة النبي والمسلمين واختار بنو بكر قريشا !

— ٨ —

وفي آية آل عمران(٢٨) استثناء مهم وهو: (**إلا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه**) مما فيه تسويغ مداراة المؤمنين للكفار الأعداء في الظروف التي توجب هذه المداراة لدفع الشر والأذى والضر والخطر وحسب ، والفرق واضح بين موالاة الكفار الاعداء وبين مداراتهم كما لا يخفى ، ولا يجوز الخلط بينهما لمسلم صادق، ومما قاله المفسرون والمؤولون في صدد هذه الجملة أن المداراة تكون سائغة اذا كان هناك خطر أو ضرر يخافهما المسلمون . وفي حدود ما لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، وما ليس فيه غض عن اهراق دم مسلم او استحلال ماله ، او فيه فساد في الدين او مشايعة ومناصرة على مسلم بفعل ما ، ويدخل في ذلك من باب اولي : اتخاذهم بطانة واطلاعهم على اسرار المسلمين ومواضع ضعفهم . وفي كل هذا صواب وسداد ، ونضيف الى هذا انه يتبادر لنا أن جملة: (**ويحذركم الله نفسه**) ثم الآيات التي جاءت بعد الآية (٢٩ — ٣٢) ليست في صدد النهي عن الموالاة فقط بل هي ايضا في صدد التحذير من التوسع في المداراة . والله تعالى اعلم .

وهناك من اجاز المداراة كرخصة وهناك من اوجبها ايجابا . ويتبادر لنا على ضوء العبارة القرآنية انها تضمنت تسويغا عاما يحدد المسلمون الانتفاع به وفق ظروفهم وفي نطاق الضرورة او في حدود الأقوال التي قالها المفسرون والمؤولون .

ولقد قال بعضهم ان الاستثناء سوغ في اول الاسلام ثم نسخ بعد ان اعز الله الاسلام ، وبما أن ظروف المسلمين لم تبق على وتيرة واحدة حيث كانوا ضعفاء ثم قووا ثم ضعفوا فالقول بالنسخ غير متسق مع طبيعة الأشياء ، والراجح انه مما أملته عزة المسلمين الأولى في صدر الاسلام ، ولا يورد القائلون اثرا عن احد من كبار اصحاب رسول الله فضلا عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولذلك يصح القول ان الرخصة مستمرة في الحدود التي ذكرناها والله تعالى اعلم .